سنوات المحنة:

محاولة الاغتيال نقطة فاصلة في حياة محفوظ

جمال الغيطاني

■ بدأت سنوات المحنة التي انتهت برحيل عميد الرواية العربية مساء اول امس منذ اثني عشر عاما، يمكن اعتبار عام اربعة وتسعين من القرن الماضي، علامة فارقة في حياة نجيب محفوظ، وفي علاقتنا به، ليس في مضمونها، ولكن في شكلها، والظروف المحيطة بها. لا اعتبر عام ثمانية وثمانين مماثلا، اعني السنة التي حصل فيها على نوبل، عندما اعلنت الجائزة يوم الخميس، ذهبت الى البيت، كان عدد كبير من الصحافيين المصريين والعرب والاجانب امام البيت الذي يقع في الطابق الاول من بيت يطل على النيل الصغير، الفرع الاضيق ناحية الجيزة، بعد لقائي بالسيدة زوجته التي كانت تواجه وضعا لم تعتده في حياتها التي كانت تمضي في هدوء، بعيدا عن الاضواء، وكان تردد المقربين جدا على البيت الصغير الذي تقيم فيه الاسرة منذ الخمسينات، شقة صغيرة، اختير اثاثها بذوق رفيع، لم يتح لي دخولها قبل يوم نوبل الا مرة واحدة عدت فيها الاستاذ اثناء مرض عابر منذ سنوات. كانت المقاهي اماكن لقائنا منذ ان بدأت علاقتنا عام تسعة وخمسين، في ذلك اليوم، بعد ظهر الخميس الاكتوبري، كان الجميع يتساءلون عن المكان الذي قصده الاستاذ، لم اكلف نفسي عناء السؤال، خرجت من البيت قاصدا كازينو قصر النيل، وهناك رأيته، اقبلت عليه مهنئا، مرحبا، كان يجلس مع صحبة من الحرافيش القدامى، عادل كامل صديق عمره، والذي بدأ مسيرته الروائية معه في نفس المرحلة وقدم الى المكتبة العربية عملا جميلا «وليم الاكبر» ومسرحية ثم توقف عن الكتابة واتجه الى عالم التجارة، ايضا الفنان احمد مظهر ـ رحمه الله ـ والمخرج توفيق صالح. الثلاثة من اعضاء جماعة الحرافيش القدامى.

يوم الخميس كان مخصصا في الاصل للقائين، الاول في مقهى عرابي بالعباسية مع اصدقاء الطفولة والشباب. في نهاية السبعينات اغلق المقهى وتم تقييسمه الى متاجر، في نفس الوقت كان معظم افراد شلة العباسية قد توالى رحيلهم، ومن امتد به الاجل حتى الان لم يعد يخرج من بيته لمرض او شيخوخة. مع بداية الثمانينات توقف الاستاذ عن الذهاب الى مقهى عرابي بعد اختفاء المقهى نفسه، منذ ان سمح لي بالتردد على المقهى في منتصف الستينات، كان يمضي فيه ساعتين بالضبط، من السادسة الى الثامنة، وعندما يحين وقت انصرافه، يمضي سيرا على الاقدام الى كبابجي شهير قريب من ميدان الجيش، يكون الكيلو في انتظاره ملفوفا، ومن حلواني قريب يأخذ كيلو البسبوسة، يستقل عربة اجرة الى الهرم حيث منزل الكاتب الساخر محمد عفيفي ـ رحمه الله ـ ومقر لقاء الحرافيش لاكثر من ثلاثة عقود، الطريف ان الاستاذ توقف عن احضار الحلوى بعد اكتشافه اصابته بالسكري في بداية الستينات.

يوم الجمعة تنقل اللقاء بين اكثر من مكان، واستقر حتى السبعينات في مقهى ريش ثم انتقل الى كازينو قصر النيل، السبت للأسرة، والاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء للكتابة، في شهر الصيف كان الثلاثاء موعدا خاصا للقائه في مقهى الفيشاوي، موعد لا يحضره الا يوسف القعيد وكاتب هذه السطور. خلال الصيف يتوقف عن الكتابة، والسبب المعلن حساسية في العينين تبدأ مع الربيع، من الصيف كان يقضي شهرا في الاسكندرية، وهناك كان له ندوته، هو ايضا المركز ويتحلق حوله ادباء الثغر والمصطافين، يأتي من يأتي ويجيء من يجيء، لكنه يظل هو في الصدارة، في صدارة المقهى، توقف عن الذهاب الى الاسكندرية منذ بداية التسعينات، عندما ضمر البصر، وبعد اجراء العملية الجراحية في لندن.

حتى عام اربعة وتسعين، حتى يوم الجمعة هذا، كان الاستاذ يمضي طبقا لنظامه المحفوظي الصارم الذي التزمه، لم يتغير، واذا تغير موقع، او مكان لقاء فانما يحدث ذلك لتغير في الظروف والواقع.

الى ان حل ذلك اليوم الخطير، الذي وضع حدا لكل ما اعتاده الاستاذ، لسعيه بين الناس، لخروجه اليومي في الصباح الباكر، وسيره حتى مقهى في ميدان التحرير، مشيه الجميل الذي اتاح لي فرصة مصاحبته اليومية في الستينات، عندما كنت اعمل في مؤسسة مقرها الدقي، وكنت التقيه فوق كوبري الجلاء وامشي بصحبته حتى كوبري قصر النيل.

عاش الاستاذ بين الناس، يسعى بينهم ويبادلهم الحب ويبادلونه، وعندما شنت هذه الحملات الصحافية التي مهدت المناخ ليوم الجمعة هذا، وظهرت ضده كتب الفها فقهاء الظلام ضد «اولاد حارتنا» رفض الحراسة. وقتها قال لي انه لا يتخيل نفسه ماشيا في الشارع ومعه حارس، كان لديه ايمان عميق ويقين داخلي ان اذى لن يلحقه، مرة اومأ برأسه، قال لي: الاعمار بيد الله.

غير انني كنت اتوجس خيفة، نتيجة تجاربي السابقة خلال الستينات، والمطاردة وتوقع الاعتقال، اذ انني انتمي الى جيل فتح عينيه على الرعب، وانخرط في العمل السري ضد الاوضاع التي رآها كثيرون منا خاطئة، نتج عن ذلك احساس امني حاد. استقرت لقاءاتنا منذ بداية التسعينات على الثلاثاء، وعندما اصبحت رئيسا لتحرير «اخبار الادب» واصبح لي سيارة خاصة من دار «اخبار اليوم» يقودها زميل من السائقين، توليت مهمة صحبته من البيت.

في السادسة الا خمس دقائق انتظر، في السادسة تماما يخرج من باب العمارة، اتقدم اليه. اصحبه حتى يصل الى العربة، افتح الباب، يفضل الجلوس في المقعد الامامي الى جوار السائق، ثم ننطلق الى المكان الذي اعتدنا اللقاء فيه، والذي استقر خلال التسعينات في مركب راسٍ على شاطىء النيل اسمه «فرح بوت» وما زال.

رغم انني غير مسلح، ولو انني مسلح فلا اجيد استخدام السلاح، الا انني كنت عند وصولي امام البيت امسح المكان ببصري، اتصور هجوما ما، ان انتظامه الشديد يسهل على من يرصده توقيت الهجوم، كنت اتوقع ذلك، استشعره مع تصاعد اعمال العنف في المجتمع من الجماعات المتطرفة، والتي كانت في جوهرها حركات احتجاج على الفساد، والخلل، لكنها ضلت طريقها عن اهدافها الحقيقية لأسباب يطول شرحها.

بعد نشر صورة الشاب الذي غرس السكين في عنق الاستاذ عصر يوم الجمعة هذا، تذكرته، في مرة كنت انتظر الاستاذ، كان الجو حارا، لفت نظري شاب يرتدي الجينز، يجلس تحت الشرفة المغطاة حيث يعيش الاستاذ في الطابق الارضي، شرفة بعرض الشقة، زجاجها سميك، مسور بقضبان مزخرفة، واضافت السيدة عطية الله رفيقة عمر الاستاذ نباتات شكلت حديقة صغيرة مبهجة تغطي الطابق كله.

تطلعت الى الشاب الذي بادلني النظر الحاد، ثم تشاغل بتقطيع ورق كان يحمله الى قطع صغيرة، لم يبد رد فعل، بل استمر قابعا بمكانه، فكرت.. ربما يستظل من الحر. لكن صورته قفزت الى ذهني بعد اسابيع عندما نشرت، انه نفس الشاب الذي تقدم من الاستاذ عصر ذلك الجمعة ليصافحه بيد وليغرس بيده الاخرى سكينا قديما، مقبضه مخلوع ومربوط بخيط دوبارة متين، طعنة وضعت حدا لحقبتين متمايزتين، مختلفتين تماما، الثانية منهما مستمرة حتى الان.

أعود الى اوراقي الخاصة التي دونت فيها وقائع تلك الايام من سنة اربعة وتسعين، بالتحديد الجمعة، الخامس عشر من تشرين الاول (اكتوبر)، في هذا اليوم كنت التمس الراحة عقب عودتي امس الخميس من رحلة الى المغرب، ارتب مكتبي الذي تغيبت عنه واستمع الى بعض التسجيلات الموسيقية الاندلسية التي اقتنيتها من مدينة فاس العتيقة.

رن جرس الهاتف، جاءني صوت الزميل والصديق مصطفى بكري:

«هل علمت انهم ضربوا نجيب محفوظ.. ارجوك تأكد من هذه الاخبار».

اجبت بالنفي، طلبت منه ان يتصل بي بعد قليل، فوجئت، جمدت للحظة، لحظة كنت اتوقعها واتمنى الا تحل، يبدو انني في مواجهتها الآن، ثمة ثوان قبل ان تبلغ الضربة مراكز الألم في المخ، سيطر علي هذا الحال بينما مثل امامي الرجل الطيب، حضوره الابدي، وصحبتي له، اتصلت بمنزله، اجابتني ابنته الصغرى، قلت بصوت محايد وكأنني لا اقصد امرا محددا واقصد:

«خير.. ما الاخبار؟»

اجابتني بألم وخشية من المجهول:

«لا أعرف ما يجري الآن.. بابا في غرفة العمليات، والنبي ادع له يا عمو..».

ثم قالت:

«ماما واختي عنده.. هنا في مستشفى الشرطة جنبنا..».

نطقت جملا قصيرة استهدفت منها بث الطمأنينة، دعوت له بالنجاة، بدأت اتصرف، اتصلت بزملائي في مركز تحرير جريدة «اخبار اليوم» كنت اول من ينبئهم بالخبر. اتصلت بصديقي يوسف القعيد، كان في منزله. قال ان احد اصدقائه اتصل به مستفسرا، اتصلت بالصديق عماد العبودي المهندس ورجل الاعمال، كانت جلسة الثلاثاء محدودة وقتئذ، وكان عماد احد اركانها، قال انه سيمر على يوسف ويمران علي ثم نتجه الى المستشفى. نزلت الى الطريق، كنت في مواجهة الليل والخوف مما يجري، ونشطت الذاكرة لتمطرني بدفق من اللحظات المولية. هذا حال اعرفه عندما يهددنا الواقع بفقد صديق، تبرق لحظات اعرفها، لحظات سمعت عنها.

انتظاري كل ثلاثاء امام البيت، ما حدث اليوم والدكتور فتحي الى جواره كان ممكنا حدوثه معي، اصغائي اليه، اقترابي من اذنه اليسرى التي ما زالت حاسة السمع فيها قوية بمساعدة السماعة، رفعي الصوت، لحظات صمته، شرود نظراته، سعيه في طريق السادسة صباحا بجوار النيل الذي احبه واقام في عوامة بعد زواجه لمدة سنة، ثم سكن على مقربة منه. محفوظ النيل ونيل محفوظ، شراؤه الصحف، استقراره في مقهى ريش، مقهى غروبي، مقهى علي بابا، في هذه المقاهي قرأ الصحف، كتب برقيات العزاء او التهاني، دون بعض الملاحظات، امسيات مقهى عرابي، رائحة التنباك المنبعثة من النرجيلة التي تعلمت تدخينها منه ثم توقفت عنها، ضحكاته المجلجلة مع صحبه اصدقاء الطفولة من شلة العباسية، سعينا في حواري الجمالية، احترامي لحظات صمته بمقاهيها العتيقة عندما يستعيد زمنه الخاص. لا اتكلم الا اذا تحدث هو، محبة الناس له، مشيه بينهم، يرد التحية لهذا، يصافح ذاك، لا يرد اي انسان، صبر عجيب، تواضع جم، سماحة لم اعرف مثيلا لها، لحظة تناوله الطعام كل ثلاثاء بصحبتنا، طعام الزهاء، قطعة جبن ابيض، شريحة طماطم، قرص طعمية، فقط لا غير.

ما لم اعرفه معه صباه في بيت القاضي، شجر ذقن الباشا، خناقات الفتوات، حي الحسين، لعبه في قبو قرمز، الثورة عام 1919، الثلاثينات، العصر الذهبي للقاهرة، الحرب العالمية الثانية، المخابىء، انتهاء عصر الفتوات، الغداء في العجاتي، الدهان، الكباب، الكفتة، السهر في توفابيان، مقهى زقاق المدق، وزارة الاوقاف، فترة العمل في قبة الغوري، الثورة.

نجيب محفوظ. انه عصر باكمله مختزل في انسان، عاش المجتمع المصري وعبر عنه طيلة سبعين عاما من الكتابة المتصلة وهذه حالة غريبة في تاريخ الادب والادباء، كدت في ذلك اليوم القصي البعيد الآن، وقد ادركت هول ما جرى وبدأت استوعب ان اولول واصرخ باكيا:

«يا استاذي.. يا حبيبي»

عندما وصلت الى المستشفى الذي يقع بجوار البيت، على بعد ثلاثين مترا تقريبا، وهذا من لطف التدبير الالهي وعنايته، كان قد مضى على تسديد الطعنة حوالي ساعتين، دخلنا الى قاعة الانتظار القريبة من غرفة العمليات. كان ـ المرحوم ـ ثروت اباظة ينهنه كطفل، او يردد:

«نجيب.. نجيب.. معقول ان يؤذيه احد.. ان يمسه احد».

نرجوه الهدوء، ونحن في حاجة الى من يهدئنا، هناك في الطابق الثاني يرقد الاستاذ ممددا فوق طاولة العمليات، فريق من الجراحين المهرة يقودهم اهم جراح اوعية دموية في مصر، الدكتور احمد سامح همام، مرة اخرى اوقن تدخل العناية الالهية.

المرة الأولى، لأن المسؤول عن صحبة الاستاذ اليوم الدكتور فتحي هاشم، وهو طبيب بيطري، لكنه طبيب اولا واخيرا، عندما ركب الاستاذ السيارة واستقر الى جواره، تقدم ذلك الشاب منه، صافحه، ثم دفع بمطواة قرن غزال في رقبة الاستاذ وبدأ محاولة الذبح. كان يستهدف قطع الشريان السباتي الرئيسي الموصل الدم الى الدماغ والمخ. كما قال فيما بعد.

«بعد ان صافحني شعرت بوحش من نار يطبق على رقبتي»..

ما أنقذ نجيب محفوظ شيخوخته، انحناؤه الى الامام بسبب السن، مرت المطواة بسبب ذلك قرب الشريان الرئيسي، في هذه اللحظة عندما بدأ اهتزاز العربة انتبه الدكتور فتحي هاشم الى ما يجري، صرخ:

«بتعمل ايه يا مجنون؟..»

قفز من السيارة، هنا القى الشاب بالمطواة، وبدأ الجري، تعقبه فتحي لكنه آثر العودة الى الاستاذ المصاب، كان الدم يتدفق كنافورة، بسرعة جلس مكانه، ضغط الجرح بيد، وبيد واحدة قاد العربة الصغيرة الى الخلف قاصدا المستشفى، قطع الامتار القليلة الفاصلة وعندما وصل الى البوابة الرئيسية هرع الى الباب صارخا:

«افتحوا.. الاستاذ نجيب محفوظ حاولوا..».

بسرعة فتح الباب، حتى هذه اللحظة كان الاستاذ واعيا، انزلوه الى نقالة متحركة، قبل ان يغيب وعيه، قال:

«خدوا بالكم انا عندي سكر..».

الحق ان التصرف جرى على ارفع مستوى، بعد تقدير سريع للموقف، اتصلت ادارة المستشفى بالدكتور احمد سامح همام، وهنا يتدخل القدر، لم يكن المحمول معروف في مصر وقتئذ، جرى الاتصال في وقت كان فيه الجراح الشهير يقف امام المصعد في الطابق الذي يسكنه متأهبا للمغادرة الى دعوة عشاء. لحقوا به قبل ركوب المصعد، لبى على الفور، وصل اللواء حسن الالفي وزير الداخلية وقتئذ، والدكتور علي عبد الفتاح وزير الصحة وقتئذ، والدكتور ممدوح بلتاجي وزير السياحة وعدد من كبار المسؤولين بمباحث امن الدولة، ما زلت اذكر الانباء التي كانت تصلنا من غرفة العمليات.

«تم ايقاف النزيف.. كان الدم يتدفق مثل النافورة..».

«تم نقل ثمانية لترات من الدم.. اربعة عشر كيسا»..

امام المستشفى جرى تجمع من مثقفين وناس عاديين توافدوا اليه بعد سريان الخبر، وتطوع كثيرون منهم لانقاذ الاستاذ، بعد اربع ساعات جاءنا النبأ:

«نجحت العملية.. ويجري نقل الاستاذ الى غرفة الرعاية المركزة».

بعد منتصف الليل، مشينا في طرقات المستشفى الذي عرف الهدوء بعد الساعات العصيبة. كنا اربعة، يوسف القعيد وعماد العبودي وممدوح الليثي وأنا، قطعنا الممرات الطويلة، لم نكن نعرف وجهتنا على وجه الدقة. اخيرا وصلنا الى غرفة الرعاية المركزة التي يرقد فيها اكثر من مريض. كان نائما على ظهره، لاول مرة في حياتي اراه بدون نظارة طبية. بدا منفعلا، صوته به رعشة وحشرجة، كان يصافح باليسرى، استعدت ما قاله الدكتور سامح همام عن تأثر العصب الواصل الى اليد اليمنى، قال انه اطمأن عندما رأى الاستاذ يحرك اطرافه، لكن الامر سيحتاج وقتا.

اعود الى اوراقي التي كتبتها في الاسبوع التالي فأجد ما نصه:

«اليوم صباح الاربعاء..

أفكر في يده اليمنى، في بطء حركتها، تلك اليد التي حفرت نهرا للابداع العربي، اليد التي كتبت الثلاثية، والحرافيش واولاد حارتنا.

اتأمل لون الجلد الغامق الذي لم اعرفه في اليد التي قبلتها مرارا، افكر في رقاده، في ايامه بعد الشفاء، اثق انه سيتكيف مع الظروف الجديدة، تماما كما تكيف مع ظروفه بعد ان ثقل السمع وكل البصر، مع علمي انه لا يغير عاداته الا بصعوبة شديدة.. احلم الآن بتلك اللحظة التي اتعجلها، عندما اصحبه كعادتنا ونجوس خلال حواري القاهرة القديمة، نسعى خلال الزمن العتيق..».

لحظات عودته الى الكتابة حلت بعد اربع سنوات من العلاج الطبيعي اليومي، عندما مال عليّ ليسر الي قائلا:

«اليوم تمكنت من الكتابة بدون ان انزل عن السطر...».

> «حتى في اسوأ ظروفه الصحية وتقدم العمر ظل ممسكا بزمام السخرية والتعليق الذكي السريع على الاحداث»

* * *

خلال تلك السنوات الاربع التالية للحادث، رتب اوضاعه، ونتيجة ارادة داخلية قوية تكيف مع الظروف الجديدة، ليس نتيجة الحادث فقط، ولكن نتيجة التقدم في العمر والوهن. لقد نالت الشيخوخة من بصره فلم يعد يستطيع القراءة، عرضنا عليه المساعدة، لكنه لم يحملنا من امرنا نصبا. رتب مع رجل طيب مجيئه اليومي اليه في الصباح ليقرأ له لمدة ساعة اهم الاخبار في صحف الصباح، القومية والمعارضة. اما المقالات والنصوص الادبية المهمة فيقرأها عليه الاصدقاء في جلساتنا الليلية والتي اصبح لها ترتيب خاص. بالنسبة لي اعتدت ان اقرأ له الشعر القديم والذي يحبه واعتاد ان يفتتح به القعدة «عشان تحلو» اي قبل ان يكتب او يقرأ. اقرأ له بصوت مرتفع ما اعجبني من شعر القدماء. وافاجأ احيانا به يكمل الابيات من ذاكرته، وقد دونت كافة القصائد التي اتضح لي انه يحفظها واعتبرتها بمثابة مختاراته.

احيانا اقرأ عليه مقطوعات من النثر، وتلفت نظري ملامحه اثناء تركيزه على الاصغاء، وقد يعلق في نهاية النص برأي ثاقب، اذا كان الزمن قد نال من حاستي السمع والبصر فانه لم ينل من الذهن الذي ما زال حادا، نافذا، اما الذاكرة فمدهشة.

احيانا يثير احدنا موضوعا ما، ويطلب رأيه، فيجيب بكلمة او كلمتين عابرتين، على سبيل المثال سألته عن رأيه في احداث ايلول (سبتمبر) بعد عام تقريبا من وقوعها، فقال لي في البداية:

«وهل يحتاج الأمر الى رأي؟».

ولما كررت عليه السؤال، قال:

«انت شايف..»

سكتّ. انتقلنا الى موضوعات اخرى واذا به بعد حوالي نصف ساعة يميل الى الامام.. يشير بأصبعه، هنا نصغي كلنا، ندرك انه سينطق ما يهمنا، ما يعبر عن رأيه، يقول:

«شوفو، بالنسبة لسبتمبر، اظن انه لم يقع حادث اضر بعلاقات الشرق والغرب مثل هذا الحادث، الذين ارتكبوه اساؤوا الى الاسلام ابلغ اساءة، وسبقته سلوكيات الطالبان التي اساءت ايضا للاسلام وصورته. اننا بحاجة الى جهد كبير لنعود الى الوضع السابق على سبتمبر.

يصمت قليلا ثم يقول:

«لا اظن ان الوضع سيعود كما كان.. ما زلنا في بداية مرحلة لم تتحدد معالمها ولا ندري نهاياتها...».

احيانا تثار مناقشات حول موضوعات أدبية او سياسات داخلية او خارجية، يكفي ان يصغي ويستوعب لينطق بالحكمة. ما زالت قدرته على توليد النكتة في ذروتها واسبوعيا يجعلنا نضحك من الاعماق بعد قفشة مفاجأة، مباغتة لا نتوقعها، والقفشة فن مصري رقيق ينتمي الى زمن جميل عندما كانت المشاكل العامة اخف وطأة، وكانت الاوقات الجميلة تمضي مع الصحبة المقربة والدنيا صافية، نجيب محفوظ من امهر ملوك القافية والقفشة، وكلا الفنين يعتمدان على سرعة البديهة والقدرة الحادة على السخرية.

بعد ان تسلم الشيك المليوني من ابراهيم المعلم، سكت قليلا ثم قال:

«تعرف انا بافكر في ايه دلوقتي؟»

تطلعنا صامتين، قال:

«بأفكر اهرب...».

وانفجرنا بالطبع ضاحكين. كانت اخبار الذين اقترضوا الملايين، وبعضهم المليارات تنشر يوميا في الصحف، هربوا بأموال المودعين، اموال الغير، ودعابة محفوظ لكم بدت نافذة، موحية، موجعة.

في مرة اخرى كنا نتحدث عن راقصة شهيرة بمناسبة تصريحها انها تنوي التقاعد. بعد لحظة صمت قال:

«ابقى اطبعها في الذخائر..».

الذخائر سلسلة اشرفت عليها وكانت تصدر عن هيئة قصور الثقافة، قدمت فيها نصوصا هامة من التراث العربي. تتميز النكت المحفوظية بالذكاء، والثقابة. الدقة وشحنة السخرية العالية، مجرد استعادة هيئته لحظة القائه النكتة او توليدها او نطقه القفشة يجعلني ابتسم. ان متابعة ملامحه اثناء الجلوس معه تمنحنا خريطة دقيقة واضحة للعواطف الانسانية، دائما كنت احترم صمته، قبل الحادث والتقدم في السن، كان يجلس مفرود القامة، متطلعا الى فوق، على وجهه ذلك التعبير الذي يستدعي الوصف المصري المتلخص في كلمة واحدة بالغة الدلالة. عندما نقول عن انسان انه «طيب»، يبدو سمحا، رقراقا، ذاهبا الى بعيد وهو قريب، الان مع التقدم في العمر، ضمر الجسد، انحنى قليلا، يطول صمته، مستغرقا في ذاته. خلال جلستنا معه احرص على الا ندخل في احاديث جانبية، عندما يشعر ان الذين معه انصرفوا عنه، ولا يستطيع الاصغاء اليهم يتداخل في نفسه، يمضي الى أزمنته الخاصة، عندئذ ابادر بسؤال، برواية خبر او نادرة، الآن، يصغي الاستاذ معظم الاوقات، اما انه يصغي الى محدثه او الى داخله. ذروة تدفقه عندما يروي ذكرياته عن المدينة، عن الحياة الأدبية، عن الازمنة المنقضية.

احاول ان اتذكر ملامحه غاضبة فلا استطيع، ينفعل عندما يعرب عن رأي يعلنه اول مرة او يتصور انه مفاجىء لنا، خلافي، لعل تلك اللحظة عن صيف عام سبعة وستين تجسد ما اقول، عندما بدأنا نلتقي في الفيشاوي. وكان المقهى القديم قائما في تلك الايام، وكانت هزيمة حزيران (يونيو) المروعة ساخنة ما تزال، مال قليلا الى الامام وقال معربا عن رأيه: اذا كان ليس في استطاعتنا مواجهة اسرائيل عسكريا، فالصلح ضروري.

بالطبع تجادلنا، وظل ذلك موضع حواراتنا لسنوات تالية، وعندما ايد الصلح مع اسرائيل في السبعينات كان يعبر عن موقفه الحقيقي، في العدد الخاص الذي اصدره عنه الاستاذ رجاء النقاش عام سبعين من القرن الماضي، قال الاستاذ انه عندما يجلس للكتابة فانه لا يعبأ بشيء، وفيما يتعلق بآرائه المبدئية فانه لم يظهر خلاف ما يبطن، وليس لديه حسابات صغيرة، كثيرا ما اختلفت معه وتثبت لي الايام انه كان ابعد نظرا. ربما لا يجنح الى الاثارة في تصريحاته الصحافية. متزن في مواقفه التي تتعلق بصلته بالسلطة، سياسية كانت او حكومية، ربما يتحفظ لكنه لا يعلن خلاف ما يبطن. واذا جلس للابداع فانه لا يلبي الا صوته ونداء ضميره.

* * *

بعد الحادث عرضت عليه وعرض عليه «المحبون» تخصيص ساعة او ساعتين يوميا لكي يملي علينا ما يرغب كتابته، لكنه شكرنا معتذرا برقة، الكتابة بالنسبة اليه اداء خاص جدا، يبقيه سرا باستمرار فكيف يمكن لانسان مهما كانت درجة القرب منه ان يشاركه اشد لحظات حياته خصوصية؟ اربع سنوات استغرقها العلاج الطبيعي حتى لحظة افضائه لي بقدرته على الالتزام بالسطر دون ان ينزل عنه، اي ان نجيب محفوظ تعلم الكتابة في حياته مرتين، الاولى في طفولته والثانية في العقد التاسع وتلك الاشق والاصعب. لكم نظرت الى يده الى ما تخطه من حروف كبيرة مضطربة لحظة توقيعه على نسخة من مؤلفاته، هذه اليد التي كتبت رواياته وقصصه القصيرة واضافت الى الادب العربي والانساني، تلك اليد التي اصابتها الكراهية والتعصب والجهل، بعد المحاولة رأيت الشاب الذي لمحته يوما تحت النافذة، سألوه عبر التلفزيون عما اذا كان نادما على محاولته قتل نجيب محفوظ فقال انه غير نادم، وانه لو سنحت له الفرصة فسيقوم بذلك، وعندما سأله المذيع عما اذا كان قرأ شيئا له، قال انه لم يقرأ له حرفا، لكن اميره اصدر فتوى بتكفير محفوظ، الحقيقة ان التكفير بدأ منذ ذلك التقرير الذي كتبه ثلاثة من المشايخ الكبار الى الرئاسة في مستهل الستينات، ومنذ ذلك الحين صارت «اولاد حارتنا» ممنوعة في مصر، محرمة، حتى وصل الامر الى ما وصل اليه يوم الجمعة الخامس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) عام اربعة وتسعين.

عندما بدأ يتقن الالتزام بالسطور، الكتابة، كانت اعصاب البصر قد وهنت، اذن.. كيف يستجيب الاستاذ للظروف الجديدة؟

بدأت سلسلة الاحلام في الظهور على صفحات «نصف الدنيا»، نصوص شديدة التركيز، تمسك بناصيتي النثر والشعر، انه يكتبها اولا بدون مواد، في ذهنه، ثم يكتبها على الورق مغمض العينين، لا يمكنه القراءة، لكنه بارادة قوية وصرامة يجسد ما في ذهنه على الورق كتابة محفوظية، اعدها الاجمل. الخلاصة، مرحلة بدأت منذ اصداء السيرة الذاتية وبلغت الذرى في احلام فترة النقاهة، انها نصوص من الشعر الذي يرتقي الى مستوى الحكمة، تتداعى عندي اصداء من الابداع الانساني الشبيه، اشعار حافظ وحكايات سعدي الشيرازي، ونصوص الامثال والحكمة.

انه المقدرة على النفاذ الى جوهر التجربة الانسانية وجوهر الوجود.

* * *

منذ خروجنا اول مرة بعد تماثله للشفاء من الحادث في كانون الاول (ديسمبر) كان الشتاء مكتملا، قصدنا هضبة الاهرام، يوسف القعيد، زكي سالم، والدكتور يحيى الرخاوي الذي اشرف على تنظيم ايام الاسبوع والمرحلة الاخيرة من علاجه ثم اصبح حرفوشا اساسيا في حلقات الحرافيش، تناولنا الغداء وقتئذ في فندق مينا هاوس، وكان الاستاذ تحت حراسة الشرطة، وضع جديد سوف نعتاده، بل سيصبح افراد قوة الحراسة اصدقاء لنا، وكأنهم اسرة جديدة للاستاذ ولنا، وضع لم يسع اليه. وضع انهى ايام السعي في شوارع المدينة التي عاشها ومنح بعض مناطقها الخلود، طوال عمره كان ضد الظاهر، البساطة بينها، لكن للضرورة احكامها، انتهى زمن التجوال في دروب القاهرة القديمة وحواريها، كثيرا ما رأيته خلال الستينات والسبعينات يجول في موطنه الاول، حواري وشوارع الجمالية، كنت احرص على الا ازعجه حتى لا اقطع تأملاته واستعادته المكان.

استأنفت لقاءاتنا الثلاثية في مركب راسٍ على نهر النيل، النيل الذي عشقه واحبه وحرص على ان يكون قريبا منه، حتى وان لم يره بالبصر، فإنه يراه بالبصيرة.

* * *

يشاء القدر ان اكون آخر من يراه مع افراد الاسرة، جرى ذلك ليلة الثلاثاء، الثامنة مساء عندما دخلت الى غرفة الرعاية المركزة، وكان الاطباء حوله يقيسون السوائل في الجسم كما اخبروني. كان راقدا على ظهره يتطلع الى المجهول، عندما اصغى الى اسمي بدا رد فعل خافت، امسكت بيده مصافحا، وكانت نظرته الى حيث لا يمكنني ان اعرف ابدا.

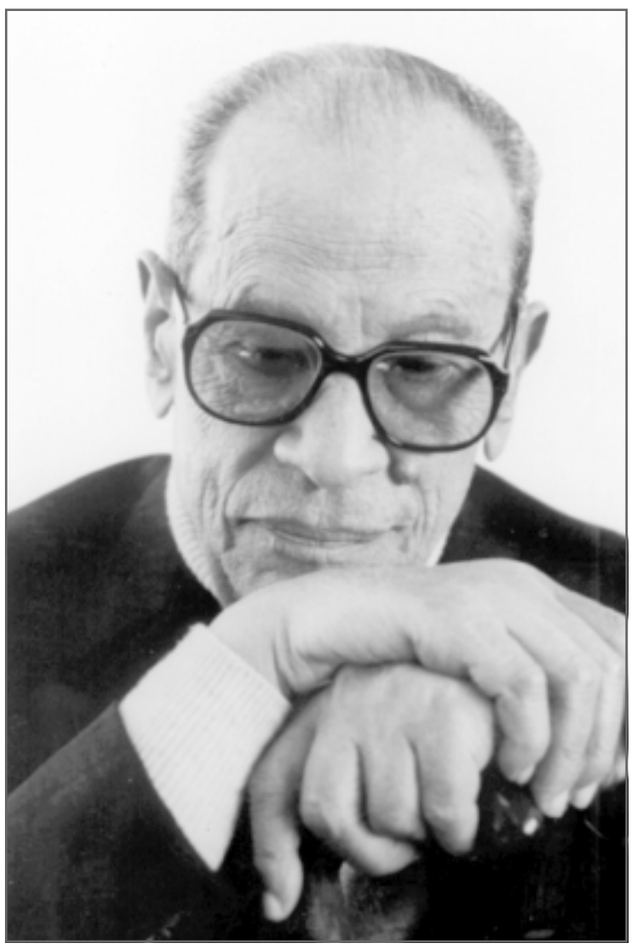

نجيب محفوظ

● تنشر هذه المقالة بالاتفاق والتزامن مع اسبوعية «اخبار الادب»

شاهد ثقافي

«بيلارس» الشعر العربي!

خيري منصور *

■ في إحدى قصائد نزار قباني المكتوبة عن بيروت وليس «منها»، يصل التأنيث أقصاه، بدءا من الضفائر الذهبية وأساور الياقوت حتى الوردة والحورية! وتتحول عاصمة أرضية تعج بالبشر وتناقضاتهم إلى معصومة، فالحرب تأتي إليها من خارجها والشرور يفرزها تاريخ شبه مجهول، وبالرغم من أن صفات الممدوح تبدو مستعارة من المطلق، إلا أن المدينة التي شهدت من العشق والكراهية ما لم تشهده مدينة أخرى تبقى خارج القصيدة، وهي تكدح وتتثاءب، وترقص فرحاً أو ذبحاً، وقد لا تشذ قصيدة نزار عن بيروت الانثى عن سياق شعري عربي حاول المزاوجة بين الأوطان والنساء، ووجد في هذه الثنائية مجالا بالغ الحيوية لافراغ فائض المكبوت سواء كان سياسيا أو جنسياً!

والعاصمة التي تتحول إلى أنثى لها هذه الصفات الناعمة، تصبح الكتابة الشعرية عنها غزلا بالمعنى الكلاسيكي لهذا المصطلح كما ترسخ في ديوان العرب، والفارق كبير بين الحب والغزل، وأحيانا بين الحب الذي يحترفه الشعر والحب الانساني العميق وذي البعدين التجريدي والعضوي!

والمدينة الممدوحة أو المعصومة هي بلا طبقات، وبلا شقاء بشري يرشح من جدران الأزقة الأشبه بالشرايين المتصلبة لفرط التوتر، لهذا يبدو اختزال مدينة ما على هذا النحو الشعري الغنائي هو بمثابة إعدام الورد والابقاء على شذاها، وليس معنى هذا أننا نطالب الشعر بالواقعية الفوتوغرافية او ما يسميه بعض النقاد الواقعية الزواحفية، بحيث ترصد تفاصيلها وتناقضاتها فهذا مجال روائي بامتياز يتطلب ما سماه بلزاك تلصصا من النوافذ أو من صدوع الأبواب والجدران على ما يجرى داخل القاعة الموصدة.

بيروت، انفردت بين عواصم العرب بمغناطيسية شديدة الجذب، فهي في ستينات القرن الماضي نداهتهم، والمدينة التي اقترنت بالحريات واجتراح المتعذر في المدن الموصدة، لهذا حولتها الحرب الأهلية الى بيلارس وبيلارس هو اسم قصيدة لبروتولد برخت تتلخص في أن هناك مدينة تحمل هذا الاسم قيل عنها انها تحقق الوصال للمحررين وتشفي الأبرص، وتغني الفقير وتحرر العبد، لكن من حلموا ببلوغها وعلقوا عليها آمالهم أصابتهم خيبة شديدة عندما قرأوا في الصحف ذات صباح أن مدينة بيلارس دمرها الزلزال.

وبالطبع فإن بيلارس رمزية رغم واقعية شاعرها ـ برخت ـ الذي فاض لديه الإحساس بالتطهير المضاد أو الكاثارسيس المعاد انتاجه بحيث تجاوز المسرح إلى الشعر!

تنبه شعراء ونقاد عرب بعد اجتياح بيروت عام 1982 أن ما كتب عنها كان يستبدل بها مساقط رؤوس وأوطان أخرى، وبالتحديد، الشعر الفلسطيني المهجوس بالحنين إلى بيروت وكأنها الغاية وليست الطريق.

وهذا ما أوشك أن يتكرر في تونس لولا سببين، أولهما القصر النسبي لزمن الإقامة في المدينة، وهي إقامة متقطعة ومؤقتة، وثانيهما أن تونس لم تكن توأما كوزموبوليتيا لبيروت، على الأقل وفق مفاهيم ثقافية سياحية عزلت بيروت عن لبنان كله، وعن بيروت ذاتها أيضا بحيث أصبحت لعقود شارع الحمراء ومقاهيه، أو الفاكهاني ومكاتبه ومظاهره المسلحة واشتباكاته وفوضاه غير الخلاقة!

وثمة شعراء عرب عاشوا في بيروت لكنهم لم يعيشوا حقيقة فيها، كمن يقيم في فندق في مدينة ولا يغادره إلا لسبب طارئ، وفي الوقت الذي كانت تكتب فيه قصائد عن بيروت الأنثى، والنداهة وبيلارس المحرومين كتب د، صادق جلال العظم فصلا من أحد كتبه الناقدة للهزيمة يقول فيه ان لبنان الذي يستورد سنويا عددا هائلا من صناديق الويسكي، لم يحل معضلة التعليم الإلزامي، وهناك من هوا أكتافهم سخرية من الكتاب لأن بيروت التي يريدون هي من ابتكار مكبوتهم السياسي والاجتماعي الطبقي والجنسي أيضا!

والمعادل الوحيد للكتابة عن عاصمة من خلال واجهات سياحية، هو الكتابة عن المرأة من خلال مساحيقها، ولون عينيها وطول ساقيها بمعزل عن احزانها، وعن الألم الذي تشعر به في خاصرتها.

فالنساء يتعذبن خارج قصائد الغزل، التي تحرم عليهن «الحيض» مثلا، وتبرئهن من الوظائف الانسانية العضوية التي يتشكل منها شرط الوضع البشري، لهذا لا تصلح المرأة بعد الأربعين أو الخامسة والأربعين للغزل، لأنها تتحول إلى مرحلة أخرى لا يتفهمها معجم الذكورة وفقه التأنيث الإسقاطي!

كانت تضاريس بيروت كمدينة خلال عقود ذات خطوط طول وعرض طبقية، وأخرى طائفية، وكانت فيها سلسلة المقاهي التي تعج بالعاطلين والمثقفين ومن يتشبه بهم، وكان فيها زقاق البلاط، وحارة حريك وبئر حسن، كان فيها القصر الذي تفوح من قوارير مدخله المرمرية رائحة الياسمين وكان فيها البيت الصفيحي والكوخ الذي لم تصله الكهرباء.

كانت وما تزال مدينة ككل المدن، بمعابدها، وأزقتها التي تختنق فيها البيوت وقصورها التي يعاد ترميمها إذا ما جاء دور الأحفاد للزعامة..

لقد تعامل الأدب العربي الحديث وخصوصا الشعر